

الى الدكتور طه حسين بك

تشریح عاطفة الحب

للدكتور زكي مبارك

أيها الأستاذ الجليل :

سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب ، وقد جرى ذكر كتاب « ليلي المريضة في العراق » ، وكانت الابتسامة التي شع ضوءها في ملامح وجهك ، تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب الحب التميم المتبول !

فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي . ولكن حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيا أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوًّا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان !

فابتسمت ابتسامة لها معنى وقلت : اخالق البشاشة في الزمن إن استطعت !

ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حين ...

نشرتها في العدد ١٨٧ من الرسالة - بتاريخ أول فبراير سنة ١٩٣٧ - وبسنوان « نقد نظام التعليم في مصر » ، وشرحت المحذورات الجوهرية التي تقاى من الاستمرار على تلك النظم ...

وما كنت أنصور عندئذ أن كل شيء سيق على حاله وسيؤول إلى ظهور مصر بهذا المظهر الغريب في الحولية الألفية بعد ثلاث سنوات ...

(بغداد)

أبر مهندس

حاشية : إن المقارنة بين الأرقام المدرجة في حولية ١٩٣٩ وبين المدرجة في حولية ١٩٣٨ - في القسم الخامس بمصر من جهة ، وفي القسم الإجمالي العام من جهة أخرى - ولا سيما في الأرقام المتعلقة برواتب المعلمين والمعلمات ومعدود المعلمين ودور المعلمات - أدتني إلى ملاحظة عدة أمور غريبة ، لم أر لزوماً لشرحها هنا ؟ بل آثرت الاكتفاء بتوجيه أنظار المختصين والمسؤولين إليها ...

ويهمني لليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخل بعض الناس في شؤون قد يجهلون بها كل الجهل ، أو يتحمسون لها بعميدة مدخولة وإيمان مصنوع .

ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود . وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ ولأني غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف ؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟ إن المتوقرين والمتزمطين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج الدوامية حين استطاعوا أن يقولوا : إن الدنيا في حرب ، وإن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب !

وأقول : إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مراض ، فالحب لا يفزو إلا قلوب الأصحاء ، وهو يماور قلوب الجنود في أصمب أوقات الحروب . وهل كان عنزة بن شداد ماجناً حين قال :

ولقد ذكرتك والراح نواهل منى ويبيض الهند تقطر من دى
فوردت تقبيل السيوف لأنها لمت كبارق تترك التهبم
وما هتف به عنزة هتف به ضابط مصري سمحت له لجنة
الأنشيد العسكرية بأن يقول :

مين زيك عندي يا خضره في الرفه يا غصن البان
ما نجسودي على بنظره وانا رايج ع الميبدان
وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود ، ولا أعرف كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بأصار التصنع والرياء

لقد قيل إن هذا نشيد لا يصلح للجنود وهم يتأهبون للقتال وأقول إن هذا النشيد من شواهد العافية ، فلكل جندي في الجيش أوطار روحية يحن إليها حين الأصحاء ، وتلك الأوطار الروحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين الشرف والوطنية . والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن العالي ، لأن الوطن لا يفلو إلا في صدور أروباب القلوب

صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال ، وكان الرجل الدين لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والنشبيب ، وكان هناك توازن بين حقوق القلوب وحقوق العقول ، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التي تجمع في شعابها بين حياض الأزهار والرياحين ومسارب الأفاعي والصلال

وأي نحن اليوم من أولئك الأسلاف ؟
في مساجدهم رويت طرائف الأشعار ، ونوقشت مذاهب الزينغ بلا تحامل ولا إسراف ، وفي بيوت أتقيائهم دوت أوهام القلوب والعقول ، وعلى السنة أصفيائهم جرت أحداث الشك والارتياح ، وبفضل ذوقهم الأدبي والفني عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون

أما عصرنا الذي أعرف ونعرف فهو عصر الرسوم والأشكال ، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق وإلا فأين الرجل الصالح الذي يقهر روحه على التزام حدود الدين ؟

وأي الفكر الذي يقهر إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل ؟
وأي الأدب الذي يحدثك عن نفسه فنشمر بآية صادق كل الصدق ؟

ومن أجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترت حساسة الناس للفكر والآداب والدين ، وأصبحت القلوب في مثل حال الشراب المقتول

وهنا أجد الجواب عن سؤالك ، أيها الأستاذ الجليل
فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وما أسمع ، وآية ذلك أني لم أنه ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبتك في جريدة السياسة يوم ظهر كتاب « مدامع المشاق » وقد قلت إنه يحرض على الشهوات ، ساءحك الله وغفرلك ! وأنا أجد في كل شيء ، أجد في الصداقة والمداوة ، وأجد في الشك واليقين ، وليس أمامي مجال للزواج ، وكيف يتسع وقتي للزواج وما قضيت يوماً خاليًا من الشقاء بالدنيا والناس ؟

فأأرضاك عني فهو حق ، وما نفرك مني فهو حق ، وما خصصتك بنفسي ورضائي إلا لأنني أعرف أنك تعاقب من فرح الحياة وحزن الحياة بعض ما أعاني . وأنا موقن بأنك تفهم عني

وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد ، فقد هتف به جندي سليم الجسد والروح ، وهو أفضل من الأناشيد التي ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح ، ولم يسموا صوت المدفع إلا في ليالي رمضان !

من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب ، ولك فيه تاريخ ، ولكنني أحب أن أعرف كيف يندُر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشرح عاطفة الحب ؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بمد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب فتناً من فنون المزاح ؟

الحب جدُّ جدِّ ، وهزله جدِّ ، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا النافلون عن تأثيرها الحسن أو السي في تلوين الوجود الحب جدُّ صراح ، والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمة لعلم النفس ، فكيف نسكت عن درسه وهو يواجه الناس في جميع الميادين ؟ كيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع ، وله تأثير شديد في توجيه مصائر الرجال ؟

وبأي حق يخلو أدبنا من تشرح عاطفة الحب ؟
وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمت على الدفاع عن كتاب « ليلى المريضة في المراق » وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل ؟

إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما يتنا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب

وأي نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بن أبي ربيعة ، أو العصر الذي عاش فيه العباس بن الأحنف ، أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي ؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية في هذا العصر تفوق الحاسة الدينية في عصر أولئك الشعراء ؟

لا يمكن القول بذلك ، فنحن بشهادة رجال الدين أقل حرصاً على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصروا أولئك الشعراء ، والله يفر لي ولك ولسائر أهل هذا الجيل !

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح
كان أسلافنا أحماء ، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف

ما أريد ، لأنك تعرف من سريري ما لا يعرف سواك
فأرايك في الحب ؟

ألا ترى أنه عاطفة تستحق أن تنأثرها في جميع المسالك ؟
وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فنسكت عن تشريحها ونحن
ندعي النجابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟
وهل يرضيك أن نصير إلى ما صار إليه من يختارون
المحفوظات لتلاميذ المدارس ، وقد تماشوا جميع الأشعار التي
تفصح عن أوطار القلوب

لو كان جميع المعاصرين من « المعارفين بالله » تخف الأمر
وهان ، ولكن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب من
الذبايح ، ويرون آثاره على الشاشة البيضاء ، وفيهم من يتمنى
لو سارت أشعاره بين أغاريد أم كلثوم وعبد الوهاب !

يجب أن تعرف أنني أخطب الدكتور طه حسين الذي نقل
أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب ، والذي يحاول أن يطبع
الجمهور المصري على تذوق الموسيقى الأوربية ، لأنها في رأيه من
أصلح الأدوات للتعبير عن المواطن والأهواء

والأوربيون الذين تعرفهم لا يرون الحب من المزاج ، وإنما
يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان ، وتسبغ عليه
أنوار الصحة والعافية ، وتشريح عاطفة الحب هو عندي باب
لتربية المواطن

تربية المواطن ؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زمانى ومن التعرض لسفاهة
الأقاويل وشناعة الأراجيف !

نعم ، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية المواطن ، وليقل من
شاء ما شاء

كل شيء في بلادنا موضع اهتمام إلا المواطن ، وإهمال
المواطن ستكون له آثار أيسرها رياضة الشبان على رذيلة
« عدم الاكتراث » وهي أقبح الرذائل وأشدّها تأثيراً في قتل
حيوية الشعوب

وهل تستطيع القول بأن الرأي العام عندنا يحسن هذه المعاني ؟
وما الرأي العام ؟ أليس صدق لآراء الباحثين والمدرسين
وهم عندنا قوم هيبون خوافون يرون الحديث عن المواطن
من فضول القول ؟

وخود المواطن هو الذى قتل الشاعرية في مصر ، وهو
الذى جعل المصريين أقل الناس إحساساً بمعاني الوجود ،
وإلا فحدثني عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب ، وما أقيم
فوق عبابه من مهرات يغنى فيها الشعر ويرقص الخيال ؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية ؟ وهل سمعت
أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تبنى
فندقاً هناك ؟ ولمن تغام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس
فيها رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب ؟
وهل عندك نبأ عن حديقة الأربكية ؟

ألم تسمع أن حديقة الأربكية ليس فيها مكان تشرب فيه
فنجاناً من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضى فيها ساعة
أو ساعتين لحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك ؟

ويتحدث الناس في هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة
زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم ، فهل تعرف أنه لا يمكن قضاء ليلة
بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان ؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعراً مصرياً قضى
ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة ؟

وما رأيك في (بحيرة التماسيح) ؟

هل سمعت لها خبراً في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب
من أهل هذه البلاد ؟

وهل خطر لك أن تقضى ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف
شيئاً من أخبار مدينة الاسماعيلية ؟

ولا موجب لتذكرك بالأقصر وأسوان : فالتناس جميعاً
يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المعاني ، وإلهم يرجع
الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك ، على أيامها ولياليها
أطيب التحية وأزكى السلام !

وما لي أبمد بك فأنتقلك إلى تلك البقاع النائية ؟

هل اتفق لك أن تلقى درساً من دروسك بين الأشجار التي
تحرق بكلمة الآداب ؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في عيادة طلبة الجامعة عن
أرسططاليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان ؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود ،
فأرايك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض المعضال ؟

ما خوفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح؟
وما الذي يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف
كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية؟
أتخاف أهل الجود؟

إطمئن ، يا سيدي الدكتور ، فهم في شغل عنا بمصايرهم
الدينيوية ، ولن يفرغوا لنا إلا بعد أن نفرغ من إعلام الناس
بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب

أما بعد فإنا أعلن عتبي عليك ، لأنك ابتسمت ابتسامة فيها
طيف من الاعتراض على اهتمامي بتشريح عاطفة الحب ، وأصارك
بأن هذا مذهب أدبي سألخص عليه ما دمت أملك القدرة على
تشريح المواطن والأحاسيس

فافتح قلبك ، يا سيدي الدكتور ، لوحى الحياة والحب ، واعلم
أن الابتسام الصادق هو أتمن ما يملك الرجال

وقد شادت المقادير أن أستطيع مقابلتك في كل يوم بعد
أن صرت معنا في وزارة المعارف ، وسأحوط لك إلى حزبنا ، حزب
الأخوة الأدبية الذي يرى أقطار العربية جسماً واحداً إذا شكا
منه عضو أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين

وسأترك الأيام بعد قليل أن التزنا الذي كنت احتكت
إليه في تقدير المداوات والصدقات لم يكن أدق الموازنين ... والله
المستول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح .

زكى مبارك

وكيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب
ضرباً من المزاح؟

كيف وقد تهيت تقديم كتاب « ليلي المريضة في العراق »
إلى محرري الجرائد المصرية لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذي بلا
موجب معقول؟

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجزت في مصر عن بعض
ما قدرت عليه في العراق؟

كنت أحب أن أؤلف كتاباً عن « ليلي المريضة في الزمالك »
أنفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة
روائية تفيض على شبابنا روحاً من أرواح الوجدان ، ولكني
خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء

فهل أرجو أن بصر قلبك بما تهيب منه قلبي؟

لقد وضعت لك الخططة بكتاب « ليلي المريضة في العراق »
فأرني كيف تصنع وكيف تصور عصرك وزمانك كما صوّرت
عصرى وزمانى . نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم
وأوهامهم ، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر
عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية

فهل أنت مستعد لافتحام هذا الميدان؟

نحن نفكر في خلق عصبية أدبية تملو على العصبية الحزبية
ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو
الترجمان الصادق لشهوات العقول ، وللعقول شهوات أعنف
وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتنقيف الشهوات العقلية يصل
بنا إلى منازل الحكماء ، وبطمعنا في الخلود

ليتنى أستطيع مصارحتك بكل ما أريد في خلق الحيوية
الأدبية والفنية!

وكيف أستطيع وأنت كثير للتلوّم والتعتب ، ولا يصل
إليك الرأى الصريح إلا مشوباً بتهمة التحامل عليك؟

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية ، وأنا أقبلك على علانك
كما تقبلنى على علانى

فهل يكون من الفضول أن أصارك بأنك لا تقبل على
حياة الوجدان إلا وأنت خائف ، مع أنك قوى المبرة
في الإفصاح عن وساوس نفسك ، ونوازع قلبك؟

وما خوفك وقد استقام لك أمر مصيرك الأدبي وصار
اسمك من أظهر الأسماء؟

الافصاح في فقه اللغة

معجم عربي : خلاصة المختص وسائر المعاجم العربية .
يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويمسك باللفظ
حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه
مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع
الكبير . طبع دار الكتب .

ثمنه ٢٥ قرشا يطلب من مجلة الرسالة
ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤنثي :

جسور يوسف موسى ، عبد الفتاح الصبيحي